مقدمة (المؤلف)

مبعث هذا الكتاب شعور متفاهم من القلق والحيرة حول ما آلت إليه الترجمة، عبر فترة زمنية طويلة، على أيدي منظري الترجمة من جهة واللغويين من جهة أخرى.

إن منظري الترجمة قاطبة تقريبا[1] لم يستخدموا تقنيات اللغويات المعاصرة وبصائرها بانتظام إلاّ قليلاً (لغويات العقدين الماضيين أو نحو ذلك)، أما اللغويون من جانبهم فكانوا حياديين في أحسن الأحوال ومعادين تماما في أسوئها حيال فكرة نظرية للترجمة.

تبدو هذه الحالة متناقضة تماماً عندما يدرك المرء هدف الترجمة الأساسي (المعروف)، أي: تحويل نص من لغة أساساً إلى نص مناظر في لغة أخرى مع الحفاظ، قدر الإمكان، على محتوى غرض النص الأصلي

1) Nida 1966, Catford 1965, and a number of Continental and Canadian Scholars such as Wilss 1980, 1982, Lefever 1975 stand out in contrast.

وسماته الشكلية وأدواره الوظيفية (وهذا تعريف غير رسمي سيحور كثيراً أثناء مناقشاتنا). وإنه لمن الغرابة بمكان أن تبدو مثل هذه العملية لا فائدة لها، على ما يبدو للغويين، على الرغم من أن تفسير الظاهرة ينطوي على تحد هائل للنظريات اللغوية ويهيىء قاعدة اختبار مثالية لها.

وبشكل مشابه، فمن الصعوبة بمكان أن نرى كيف يمكن لمنظري الترجمة أن يتخطوا التقييم الميعاري والذاتي للنصوص دون الاعتماد اعتماداً كبيراً على اللغويات. وتصبح الحاجة إلى الوصول للمعرفة المتراكمة والتآلف معها عن طبيعة اللغة ووظيفتها ومنهج البحث اللغوي حاجة ماسة ولا يمكن تجاهلها إذا كان على نظرية الترجمة أن تتخلص من الآراء الشخصية ومن الميل إلى سرد قوائم من «القواعد» لخلق ترجمات «صحيحة»، والشروع في وصف موضوعي منتظم لعملية الترجمة.

وتعتمد فكرة الكتاب الأساسية على التصورات التالية:

أ- إن التناقض الذي ما زلنا نصفه قد نشأ نتيجة سوء فهم جوهري لما تنطوي عليه عملية الترجمة عند كل من منظري الترجمة واللغويين على حد سواء؛

ب- وقد أدى سوء الفهم هذا، في نهاية المطاف، إلى الإخفاق في بناء نظرية ترجمة مقبولة تماماً بالمعنى النظري أو التطبيقي؛

ت- وأن الحدوث المتزامن للتقدم الحاصل في علم الإدراك، والذكاء

الاصطناعي ولغويات النص، مع ظهور نظرية لغوية اجتماعية الجوهر تعتمد أسساً دلالية وظيفية، أي: النحو النظامي*، يجعل هذا الوقت لحظة مثالية لمحاولة حل التناقض وتطوير نظرية ترجمة مناسبة.

كتب هاليدي في عام ١٩٦٠م بحثاً عن اللغويات والترجمة الآلية[٢] جاء فيه الملاحظة التالية:

«ربما كان من المفيد تأسيس أنموذج لغوي لعملية الترجمة، لا نبتدىء فيه من أية مفاهيم مسبقة خارج حقل دراسة اللغة، ولكن نعتمد فيه على أسس المفاهيم اللغوية الهامة والمتعلقة بوصف اللغات بوصفها طرقاً من نشاط في حد ذاتها».

إنها هذه هي المهمة بذاتها التي نذرنا أنفسنا لتنفيذها، أي: نمذجة عملية الترجمة أو تأطيرها، ووضعها ضمن أنموذج لغوي منتظم.

---

* النحو النظامي: منهج لغوي وضعه عالم اللغة البريطاني هاليدي Hallidy (المولود في عام ١٩٢٥) بعد تطوير آراء فيرث Firth (ت ١٩٦٠). ويقوم هذا المنهج على تنظيم اللغة والدراسة اللغوية على ثلاثة مستويات (هي المادة substance، والصيغة form، أي: النحو والمفردات، والسياق context)؛ وثلاثة مقاييس (هي الرتبة rank، والتحقيق ex-ponence، ومدى التفصيل delicay)؛ وأربعة أبواب (هي الوحدة unit، والصنف class، والبنية structure، والنظام system).

2) Halliday and McIntosh 1966, 137.

يدفعنا لفعل ذلك حافزان: الأول، جوهري وأساسي، والآخر نفعي. فمن وجهة النظر اللغوية، نعتقد أن محاولة ابتكار مثل ذلك الأنموذج ستكون ممتعة في حد ذاتها وقيمّة بوصفها وسيلة لاختبار النظرية وتقصي استخدام اللغة. ومن وجهة نظر عملية، فإننا ندرك أنه في عالم يتغير بسرعة وتتسع فيه آفاق المعرفة وتنتشر بسعة لا نظير لها، يصبح فيه تحويل المعلومات أكثر اعتماداً من أي وقت مضى على ترجمة فعالة ومؤدية للغرض.

وبناء على ذلك فإن هدف هذا الكتاب هو (١) توضيح معالم أنواع المعارف والمهارات التي نعتقد أنها تكمن تحت مقدرات المترجم العملية و(٢) بناء هذه المخطط التوضيحي على هيئة أنموذج لعملية الترجمة. وعلى المدى البعيد، فإننا نرغب أن يدلي هذا الأنموذج بدلوه في عملية خلق نظرية ترجمة مقبولة فكرياً وعقلياً وممكنة عملياً ضمن حقل أوسع من اللغويات التطبيقية.

ويعكس تنظيم الكتاب اعتقاداً ضمنياً في أن الحاجة الأساسية ـ من وجهة نظر نظرية وأخرى عملية ـ تكمن في وصف عملية القيام بالترجمة وتأويلها. وسيقع مثل هذا الأنموذج ضمن النطاق الأوسع للاتصالات الإنسانية، ولذلك لابد من اعتماده اعتماداً أساسياً على علم اللغويات وعلم النفس أيضا.

وسينطوي ذلك على تطوير تآلف وكفاءة بين النماذج النفسية والنفسية ـ اللغوية للذاكرة ومعالجة المعلومات من ناحية ونماذج المعنى اللغوية (في

معناها الأوسع)، بما في ذلك معنى أوسع من معنى الجملة من الناحية الأخرى.

ولهذا السبب ذاته، قسم الكتاب - على ثلاثة أبواب غير متساوية: الأنموذج، والمعنى، والذاكرة (وملهم هذه المصطلحات هو كتاب ستيفك الهام عن تعليم اللغة)[٣]. وقصد من هيمنة الجزء الثاني (المعنى) تأكيد محورية المعنى في الترجمة سواء عولج من وجهة نظر نظرية أو من خلال تطبيقات عملية معتمدة على أسس في المخيلة.

إلاّ أن هناك معضلة بنائية تواجه المؤلف، على أية حال. إن محورية المعنى لا غبار عليها ولا غبار أيضا على الحاجة لتقديم أنموذج للعملية وتبرير الأنموذج من خلال تقديم بصائر من علم اللغويات وعلم النفس اللذين يفرزانه. ويمكن صياغة المعضلة بسهولة على النحو التالي: من يأتي أولاً، العرض أم التبرير؟

هناك حلاّن واضحان لو قبلنا بأنه ينبغي على الأنموذج والتبرير أن يقعا على أحد طرفي «المعنى»: (أ) الأنموذج + التبرير أو (ب) التبرير + الأنموذج.

لقد اعتمدنا المنهج الأول في أن نقدم أنموذج العملية أولاً، رغم أن البصائر اللغوية والنفسية التي يعتمد عليها لم تقدم بعد. فمن ناحية لن

3) Stevik 1976. The full title is Memory, Meaning and Method.

يحظى ذلك برضى القارىء التام بالطبع، ولكنه يتمتع بمزية تجريب أقل لصبر القارىء من المنهج الثاني، ولكن رغم ذلك، فلم يزل القارىء يجابهه معضلة الحاجة للتحرك للأمام والخلف بين الأنموذج والتبرير، ولكن إذا ما أخذنا الطبيعة الخطية للكتب، والمظاهر المادية لعملية القراءة، فيبدو أن ذلك أمر لا مفر منه. وعلى أية حال، فإن هذا الكتاب هو عن نظرية الترجمة وليس «من ـ قام ـ بتأليفه»!.

ربما كان من المفيد، في هذه النقطة، أن نذكر اهتمامات كل فصل، مدركين في الوقت نفسه، أن عدة موضوعات تميل للتكرار وتتجاوز حدود الفصول.

يضم الباب الأول فصلين يركزان على موضوعين مختلفين بعض الاختلاف: (أ) نقاش تقديمي عام حول طبيعة الترجمة و(ب) عرض أنموذج توضيحي للقيام بالترجمة.

ويطرح الفصل الأول السؤال التالي: ما الترجمة وما أفضل السبل لوصفها وشرحها. وفي الجواب عن ذلك، فإننا نميز الترجمة بوصفها عملية عن الترجمة بوصفها نتاجاً، ونقترح إنشاء أنموذج لعملية القيام بالترجمة بوصفه خطوة أولى نحو نظرية ترجمة عامة متعددة الأنظمة.

أما الفصل الثاني فيطرح السؤال التالي: كيف سيبدو أنموذج عملية ممارسة الترجمة، وطرح السؤال التالي المتعلق بالسؤال الأول قبل إنشاء

الأنموذج: ما المعرفة والمهارات التي ينبغي أن يستحوذها المترجم كي يكون قادراً على الترجمة؟ أي: كيف يمكننا تحديد كفاءة المترجم؟

وتتطلب مسألة تحديد كفاءة المترجم أن نناقش كلا من أنظمة المعرفة المجردة (اللغوية والمعرفة المتعلقة بالعالم الحقيقي) والمهارات العملية الأساسية المتعلقة بالقراءة والكتابة. ومتى وضحت معالم الأرضية على هذا النحو، سنكون قادرين على التحرك بطرح السؤال الكامن وراء الكتاب برمته: ماذا يفعل المترجمون عندما يترجمون؟ للإجابة عن ذلك، نفترض نموذجاً مبدئياً ومتكاملاً لعملية القيام بالترجمة يطرح الموضوعات الأساسية التي تشغل اهتمامنا في ما تبقى من الكتاب، أي: طبيعة «المعنى» وتخزين المعلومات في الذاكرة ومعالجتها.

وينتهي الفصل بفقرة يُستخدم فيها النموذج لاظهار كيفية القيام بترجمة قصيرة (قصيدة فرنسية).

ويركز الباب الثاني على المعنى: معنى الكلمة/ الجملة التقليدي، المعنى الدلالي (المنطق والقواعد)، والقيمة التواصلية (الخطابية)، ويضع كلا من أصناف المعاني هذه ضمن نموذج وظيفي (نظامي) للغة ويصلها بالنص والحديث.

ويقدم الفصل الثالث معضلة «المعنى» (مقيدة، عند هذا الحد، بوجهة نظر محافظة نسبياً وهي «المعنى الدلالي») من خلال طرح السؤال التالي:

«ماذا تعني هذه الكلمة/ الجملة؟» ويعطي إجابة تنطوي على مفاهيم من علم الدلالة التقليدي. وقد استُقدمت عدة فروقات مفاهيمية أساسية ونوقشت، واقترحت بعض الطرق لدراسة جوانب المعنى المتعددة.

وتضم هذه الفروقات: (أ) المعنى الدلالي والمرجعية، (ب) المعنى الذاتي والمعنى الإيحائي، و(ت) الترادف والاندراج والمناقضة، و(ث) الاستلزام والاستتباع التحاوري والافتراض المسبق، و(ج) القضية، والجملة والقول. ومن بين الوسائل التي ناقشناها هنا: (أ) استخدام تحليل المكونات لتحديد معنى الكلمة، و(ب) خلق حقول دلالية ومعجمية، و(ت) قياس المعنى الإيحائي باستخدام وسيلة التحليل الدلالي التقابلي.

ويخطو الفصل الرابع بمفهوم المعنى الدلالي خطوة أبعد من خلال طرح السؤال التالي: «كيف تُنظم العلاقات المنطقية وتُجدول في أنظمة اللغة البنائية وتدرك بوصفها نصاً؟» ونتفحص، في هذا الفصل خاصة طبيعية (أ) المعنى الإدراكي والتعبير عنه من خلال أنظمة التعدية و(ب) المعنى التفاعلي والتعبير عنه من خلال أنظمة الصيغة، و(ت) المعنى الحديثي (النصي) والتعبير عنه من خلال أنظمة الموضوع (المسند إليه). وبعبارة أخرى، وُسع المعنى الدلالي، ليضم وظائف اللغة الكبرى التبادلية والنصية والفكرية والأنظمة ـ المنطقية والقواعدية والخطابية التي تحققها.

وينهي الفصل الخامس تقصي «المعنى» من خلال نقل بؤرة التركيز من معنى العبارة الدلالي ويضعها على قيمة اللفظ (أو النص) التواصلية من خلال طرح الأسئلة التالية: (أ) كيف يمكن تمييز النص عن غير النص؟ و(ب) كيف تُعين الجمل بقيمة تواصلية معينة؟ أو «كيف يتأتى لبنية نحوية بحد ذاتها أن تعتبر حدثاً كلامياً من نوع محدد؟ أو (ت)» ما العلاقة بين المخاطب (المتكلم ـ الكاتب) والمخاطب (السامع ـ القارئ) التي تعزلها أو توضحها بنية هذا النص؟ وما الوسيلة التي استخدمت لتحقيقها؟ وما وظيفتها؟

ويؤدي ذلك أولاً إلى توسيع مخطط نموذج التنوع التخاطبي (الذي استقدم أولاً في الفصل الأول الفقرة (١ـ ١) الذي يضم مؤشرات اللهجة ومَعلَمات الأسلوب (الطريقة، والشكل ومجال التطبيق) ومناقشة أنماط النصوص في الفصل التالي.

وتمثل «الذاكرة» محور الباب الثالث العام، وتتمحور حول جانبين أساسيين من المعلومات، والذاكرة والمعرفة التي لا مفر منها في أي فهم لعملية ممارسة الترجمة: (أ) الموضوع المحدد الخاص بمعالجة النص، (٢) الموضوع الأعم ولكنه على صلة بالموضوع المتمثل في تخزين المعلومات واسترجاعها.

يطرح الفصل السادس عدة أسئلة تتمحور حول موضوع معالجة النص: (أ) كيف يتم التمييز بين أنماط النصوص، و(ب) ما المعرفة

والمهارات لدى معالجي النصوص والتي تمكنهم من معرفة المعنى من خلال النصوص؟ و(ت) كيف ينشط المتواصلون معرفتهم ومهاراتهم لتركيب النصوص (كتابتها) وتحليلها (قراءتها)؟

ويهتم الفصل السابع بالعمليات اللغوية ـ النفسية التي تنطوي عليها معالجة المعلومات والذاكرة ضمن سياق التواصل الإنساني من خلال طرح السؤال التالي: «كيف نستقبل المعلومات وكيف تُنظم وتُخزن في الذاكرة»؟. ويقودنا ذلك لمناقشة العلاقة بين الإحساس والفهم وعمليات الترميز وفك الرموز وطبيعة أنظمة الذاكرة وأنماط المداخل التي تخزن هناك.

ويتمتع الانموذج المقترح لهذه العمليات بمكانة خاصة لتحقيق هدفنا، إنه بناء لنموذج عملية ممارسة الترجمة. ويمثل اكتساب معلومات جديدة، ودمجها في ذاكرة طويلة الأمد واسترجاعها وقت الحاجة أجزاءً أساسية من معرفة المترجم ومهاراته، ولذلك، فهي عناصر في النموذج الذي طوره هذا الكتاب (وفي الواقع، في أي نموذج للعملية).

إننا مقتنعون تماماً الآن أن محاولة القيام بفهم ماهية الترجمة وكيف تحدث أصبحت ضرورة ملحة، أي: من الضرورة بمكان التقدم قدماً نحو بناء نظرية مقبولة نظرياً وعملياً. ونعتقد أكثر من ذلك أن هناك أسباباً وجيهة (عملية ونظرية) لتبني المهمة التي ندبنا لها أنفسنا. إننا نأمل فقط أن يقدم هذا الكتاب اسهاماً صغيراً في ذلك الاتجاه والفهم.